

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة التاسعة - العدد السادس والثلاثون - شتاء ١٣٩٨ش / كانون الأول ٢٠١٩م

صص ١٦٣ - ١٣٧

رستم بين بطل في المذهب البرغماتي ونقيض البطل في الفلسفة المثالية؛ دراسة في اتجاه الفلسفة البرغماتية

سيده مريم ميرحسيني*

فاطمة حيدري (الكاتبة المسؤولة)**

الملخص

البرغماتية هي أحدث الاتجاهات الفلسفية في العالم. وهي تلقى نظرة خاصة على مكونات اليوتوبيا البشرية وتقترب مبدأ العمل على أساس الاستنتاجات، وبعبارة أخرى، محاولة العمل للوصول إلى منفعة حقيقية. تنظر هذه الفلسفة إلى قضايا مثل العدالة والقانون والأخلاق بنظرة مغايرة للفلسفة القديمة. تعد رائعة فردوسي "الشاهنامة"، باعتبارها كتاباً ملحمياً، انعكاساً متعالياً لثقافة أمة ونموذجاً رائعاً لطقوسها، وبالتالي يمكن أن تكون ذا أهمية كبيرة لمنظري الفلسفة البرغماتية. وبنظرة موازية على المجتمع الأسطوري للشاهنامة وتحليل سلوك الشخصيات فيها؛ مثل رستم وأبطال الشاهنامة الآخرين على أساس هذه المؤشرات، تظهر العلاقة بين يوتوبيا فردوسي والفلسفة البرغماتية. قامت الباحثتان بعد تقديم الفلسفة البرغماتية والنظريات المختلفة حولها، بالمقارنة بين المجتمع المثالي للشاهنامة واليوتوبيا البرغماتية، وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مستنداً إلى أبحاث المكتبات وتجميع المصادر المترجمة المكتوبة المتعلقة بالفلسفة البرغماتية. وفي هذا المقطع، مع إلقاء نظرة خاصة على شخصية رستم كرمز أسطوري وممثل إيراني في الشاهنامة، نجد أن أفعال رستم وأبطال الشاهنامة الآخرين أخذ الجانب العملي البرغماتي، وقد أثرت هذه الأفعال في ترسيخ أهدافهم وتنمية مجتمعهم.

الكلمات الدلالية: البرغماتية، الأخلاق الواجبة، الشاهنامة، رستم، الاحتيال، النغمة، الأخلاق.

*. طالبة دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، فرع كرج، جامعة آزاد الإسلامية، كرج، إيران
maryam.mirhoseini@kia.ac

**أستاذة مشاركة في اللغة الفارسية وآدابها، فرع كرج، جامعة آزاد الإسلامية، كرج، إيران
Fateme_heydari10@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٩٨/٩/١ش

تاريخ الاستلام: ١٣٩٨/٤/١٧ش

المقدمة

تعدّ الشاهنامه أعظم ملحمة شعرية وتاريخية فارسية تحتوى إضافة إلى الروايات التاريخية على قصص وحكايات مستقلة عن التاريخ والسير التاريخية، كحكاية زال ورستم، رستم وسهراب، بيژن ومنيزه، رستم واسفنديار، بيژن وگرازان، كرم هفتواد وغيرها من الحكايات. والعامل المشترك بين هذه القصص والحكايات، هو سلوك البطل الوطنى باعتباره المنقذ المثالى والخيالى العظيم الذى يؤدى إلى حد كبير إلى انتصار الفرس. وما يستنتج من بطولات الشاهنامه، هو أن أفعال تلك الشخصيات فى بعض الأحيان تنتهك المبادئ الأخلاقية التى تظهر فى الفلسفة والثقافة الشرقية والذى تجعلها شخصيات رئيسية تفتقر إلى المواصفات البطولية التقليدية وما يعرف بنقيض البطل. الفعل البطولى الإيرانى، وعلى رأسهم رستم، هو مجموعة من تضارب الأخلاق ومناقض للأخلاقيات التى تجاهلها الإيرانيون الوطنيون إلى حد كبير بسبب الهدف الكبير المتمثل فى إنقاذ إيران وانتشار العقيدة الزردشتية، ولكنها لم تكن خافية عن الأخلاقيين، كما أنها تشكل أحد الخلافات المثيرة للجدل بين النقاد فى هذا المجال. للأخلاقيات والفضائل الأخلاقية تعريفات ثابتة فى الفلسفة الشرقية والفلسفة الإسلامية. يتحدث خواجه ناصر الدين الطوسى فى كتابه الأخلاق الناصرى عن الفضائل الأخلاقية باعتبارها (الحكمة) إذا كان هناك اعتدالاً فى الحواس الإنسانية و(الشجاعة) فى حال كظم الغيظ و(العفة) فى حال ضبط النفس والتحكم فى القوة الشهوانية وعندما تتحقق هذه الفضائل الثلاث وتمتزج مع بعضها بعضاً، يتم تحقيق فضائل العدالة. وتدعى فى النصوص الدينية الصفات الحسنة (الفضائل) وفى حال تجاوزها أو تهاون فيها تدعى السمات السيئة (رذائل). (طوسى، ١٣٦٤ش: ١١٢-١١)

١١ تتوافق هذه التعريفات مع أفكار أرسطو، والتى ذكرت فى كتاب علم الأخلاق إلى نيقوماخوس. إن مسألة أخلاقيتنا بين فلاسفة العصور الوسطى لها جذورها فى أخلاقيات أرسطو إلى أن ظهر شكل جديد فى عصر التنوير مع ظهور فلسفات تجريبية مثل ديفيد هيوم وجون لوك. تعتبر نظرية هيوم الأخلاقية العمل بأنه معيار الأخلاق، وهو الذى يحدد سلوكنا ما إذا كان على الصواب أم لا. تعتبر الفلسفة البراغماتية، التى

يركز عليها هذا البحث ولادة جديدة لفلسفة هيوم التجريبية في حلتها الجديدة كمدرسة فلسفية أمريكية، تتمسك بما هو متوقع ومفيد باعتباره حقيقة، ووفقاً لمبدأ العمل هذا، يعتبر عمل أو سلوك صواباً ومفيداً أحياناً وفي حالة أخرى وحين آخر يفقد فعاليته. في بعض الأحيان، ومن أجل تحقيق الهدف المنشود، يجب علينا مراعاة المصلحة العامة في المجتمع والمهم هو تحقيق الهدف وليس الوسيلة لتحقيقه. من وجهة النظر هذه، فإن قضية الأخلاق والفعاليات الاجتماعية في الفلسفة البرغماتية لها دلالة تتعارض مع الفلسفة الشرقية والفلسفة الإسلامية، وكذلك الفلسفة العقلانية الغربية، وموضوع السعادة الإنسانية.

أسئلة البحث

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. من وجهة نظر فلسفة البرغماتية، هل رستم بطل عملي أو نقيض للبطل ينتهك الأطر الأخلاقية؟
٢. هل برر فردوسى انحيازه في توصيف بطله، أم بطولاته الملحمية تعبير خالص لا ينقصه شيء؟
٣. هل معايير الأخلاق والنفعية والعدالة والتسامح التي تم التعامل معها في الفلسفة البرغماتية تتفق مع تلك الموجودة في الشاهنامه؟
٤. هل تأتي البيوتوبيا البشرية (المدينة الفاضلة) من خلال الأفعال العملية للجهات الفاعلة؟

فرضية البحث

يبدو أن تصرفات أبطال الشاهنامه وأبرزهم رستم، تتماشى مع ما يسمى الفعل العملي البرغماتى في الفلسفة البرغماتية، وفردوسى في تعامله مع أبطال الشاهنامه جعل جميعهم براغماتيين، معتقداً أن انتصار الأبطال، هو نتيجة أفعال تلك الشخصيات البرغماتية.

خلفية البحث

هناك العديد من الأطروحات والمقالات حول البراغماتية التى حللت هذه الفلسفة من وجهة نظر المنظرين المختلفة التى يمكن العثور عليها فى "براغماتية تشارلز ساوندرز بيرس" للكاتب: أكبر غضنفرى والمشرف: عبد الكريم رشيديان. كما يمكن الإشارة إلى "أصول البراغماتية الحديثة لريتشارد رورتى" للكاتب محمد أصغرى. يوجد مقال أيضا بعنوان "تفاعل البراغماتية مع ما بعد الحداثة فى فلسفة ريتشارد رورتى" للكاتب محمد أصغرى، والذى كان موضوع اهتمام كبير للكاتب. وفى مجال النقد الأدبى وتطبيق البراغماتية فى النصوص الأدبية، يمكن الإشارة إلى مقال بعنوان "البراغماتية (العملانية) فى كلية ودمنة لفاطمة مهربانى ممدوح (المؤلف) والمؤلف المسؤول (محمد آهى) فإنه على الرغم من نجاحه فى إدخال مكونات البراغماتية، إلا أنه فى نقده لكليلة ودمنة لا يشكل انتقاداً سليماً على أساس معايير البراغماتية. وفيما يخص الشاهنامه لفردوسى وشخصيته المحورية "رستم"، أنجزت دراسات وأبحاث على نطاق واسع من مختلف الجوانب الأدبية والنفسية والفلسفية والمقارنة. نشير إلى بعضها؛ مقالة بعنوان "ميزة رستم فى الشاهنامه، الطابع الإنسانى المثالى" للكاتب أصغر نهجىرى و"تحليل شخصية رستم فى معركته مع سهراب" لمريم صادقى، "قصة رستم دراسة مقارنة لعلم الأخلاق إلى نيقوماخوس تأليف أرسطو" لذوالفقار علامى وليلا چاوشى آقاياتى. ولكن كما جاء مسبقاً، لم يكن هناك بحث ناجح فى مجال التحليل النصى الأدبى من حيث السمات العملية للبراغماتية، ولم يتم إجراء دراسة عملية لشخصيات الشاهنامه -خاصة رستم- تظهر كرسالة أو مقالة علمية. فنظراً إلى التواتر المنخفض للبحوث التأويلية الفلسفية فى الأدب الذى يدرس النصوص الأدبية من منظور النظريات الفلسفية ويوفر مؤشرات لها، تظهر الحاجة إلى مزيد من البحث فى هذا المجال أكثر من ذى قبل.

أهمية البحث

هذا البحث الذى يستند إلى الفلسفة البراغماتية ويسعى إلى توفير إطار مناسب

لتوفير مجتمع ديمقراطي يعتمد على العمالنية، يفترض دائماً نوعين من العمل الاجتماعي والأخلاقيات؛ العمل الغائي أو النفعي المناسب مقابل العمل المثالي والوظيفي الموجه إلى العمل. وهذا التناقض بين الأفعال المثالية والبرغماتية يبرز بشكل ملموس في الشاهنامه وشخصياته. ورستم بصفته محوراً لكثير من قصص الشاهنامه والذي تؤثر أفعاله وأعماله في تحديد مصير بلده وشعبه، تظهر منه أحياناً سلوكيات متناقضة. ومن هنا تقع الشاهنامه وخاصة رستم موضع شك وترديد من قبل الأخلاقيين الذين إما أنهم متأثرون بالأخلاق الشرقية أو متمسكون بالأخلاق الكانتية كمبدأ توجيهي للسعادة الإنسانية. ولكن الحقيقة أن هذه الأخلاقية على الطرق السابقة لا تؤمن الاستجابة لأهداف ومصالح المجتمعات المرسومة. والغرض من هذا البحث هو توفير رؤية حديثة أكثر اتساقاً وأخلاقية للمبادئ التوجيهية الأخلاقية والاجتماعية التي وضعها الفلاسفة السابقون نظراً لواقع المجتمعات الحالية حتى يمكن منحها جانباً عملياً وإعطاؤها رؤية واقعية لقضية الإنسان ومجتمعه.

البرغماتية (الذرائعية)^١

المصطلح مشتق من الكلمة اليونانية pragma، معناه العمل. «إنها نظرية يتم بموجبها معيار صحة المعتقد بالعمل". (حلبى، ١٣٩٣ش: ٩٦٤) وقد ترجم المصطلح بفكرة مبدأ العمل أو مبدأ النفعية العملية، وأحياناً العمالنية. ظهرت هذه الفلسفة في أمريكا في القرن التاسع عشر. إن الأفكار التي جاءت من العالم القديم، وكذلك الكميات الهائلة من العلوم والمعرفة الجديدة المتاحة للأميركيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بطبيعة الحال لم تتسجم مع الأطر والمدارس الموجودة في السابق، فهي تحتاج إلى إطار جديد يكون أكثر اتساعاً وشمولاً. لكن العقل الأمريكي لم يكن قادراً على بنائه أو قبول الأطر الجديدة المقدمة. وقد اكتفى بتصنيف عناصر تلك المجموعة الكثيفة لاستخدامها عند الحاجة. «واعتبر أن المنفعة والغاية هي معيار لصحتها، وتخلص من كل الحجج القديمة حول معايير الحق والحقيقة.» (اسكفلر، ١٣٦٦ش: ١١٠) يعتبر

الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بيرس أوّل من ابتكر كلمة البراغماتية فى الفلسفة المعاصرة وأوّل من استخدم هذا اللفظ عام ١٨٧٨م فى وصفه لنظرية المعنى. باعتبار أن التطبيق العملى للفظ أو الفكرة فى الحياة الحقيقية تمنحها المعنى. من وجهة نظر بيرس إن تصورنا لموضوع، ما هو إلا تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر.

نشأة البراغماتية التاريخية

تمتد فترة البراغماتية الأمريكية من نهاية الحرب الأهلية إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وهى الفترة التى تحوّلت فيها أمريكا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضوج. كانت المجتمعات الريفية الصغيرة تتحول إلى بلد حضرى وصناعى كبير، ولم تكن هذه التغييرات علمية بل كانت اجتماعية وروحية.

نشأة البراغماتية الفلسفية

تمثل فلسفة كانت وهى الفلسفة الأهم والأكثر تحديدا فى القرن الثامن عشر، نقطة انطلاق للبراغماتية ومواجهة التيارين الرئيسيين للعقلانية^١ والتجريبية^٢. (فروغى، ١٣٩٣ش: ٦٧٦) يمكن للمرء أن يطلق على البراغماتية ولادة جديدة لفلسفة "هيوم" التجريبية فى حلتها الجديدة أو فلسفة "جون لوك" الوضعية المنطقية للمادة التجريبية. كان أحد الأهداف الرئيسية للبراغماتية هو جعل العلم الحديث يتماشى مع الفلسفة وانتقاد المواقف الفلسفية التقليدية فى ضوء التطورات العلمية الحديثة. ثم تخلّى البراغماتيون بحزم وفى آن واحد، عن العديد من المبادئ الثابتة والمطلقة والقواعد الأساسية، لافتين إلى الواقع والعمل والقوة. وهذا يعنى سيطرة الطبيعة التجريبية مقابل الطبيعة العقلانية. «اتبعت البراغماتية أولاً أفكار الوضعية المنطقية (فلاسفة حلقة فيينا) وفلسفة برتراند راسل فى التحليل المنطقى واتخذت الفلسفة التجريبية المطلقة منهجاً لها.» (المصدر نفسه: ٤٩١) لكنها ابتعدت فيما بعد عن مبادئ الفلسفات السابقة. «يرى

1. Rationalism .

2. Empiricism .

البراغماتيون فلسفتهم على عكس كل من العقلانية والتجريبية.» (دريدا، ١٣٨٥ش: ٤١)

نشأة البراغماتية الاجتماعية

إن التيار الفلسفي للبراغماتية هو أيضاً عبارة عن حركة وتيار اجتماعي، وشأنه شأن التيارات الفلسفية الأخرى، يعكس الظروف التاريخية في فترة نشأته والمجتمع الذي نشأ فيه. «بالعودة من كانت إلى هيوم، وخاصة إلى بيركلي، ينبغي النظر إلى تلك الفترة في ضوء التطورات الاجتماعية والفكرية العظيمة، أي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. خاصة في ظل تكثيف الصراع الطبقي ونشوء الماركسية، وكذلك الظروف الخاصة وسمات المجتمع الأمريكي وطريقة تفكير الأمريكيين ورؤيتهم للعالم. هذه التطورات لا يمكن أن تغير من وجهات النظر الفلسفية والفكرية للطبقات الرجعية. كانت مهمة البراغماتية وغيرها من التيارات الفكرية المشابهة توفير أساسيات النظرية لهذا التحول والتراجع على حد سواء. (شيفلر، ١٣٨١ش: ١١)

الأصول العلمية للبراغماتية

كان الصراع بين قانون نيوتن ومعادلات ماكسويل أحد أخطر الأزمات في تاريخ العلم في القرن العشرين. كانت هناك قضايا في مجال الفيزياء الذرية أوضحت أن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها في هذا المجال. وفي الواقع ذكر بعض العلماء أنه لا يمكن تفسير هذه الظواهر على الإطلاق. قام سينسر بتبرير التطور وفقاً لمبادئ الميكانيكا، ولكن على خلافه اعتقد بيرس أنه لا يمكن لأي من القوانين ولا مبادئ الميكانيكا تفسير التباين الواضح في الطبيعة. كانت هذه هي القضايا التي استولت على منظري البراغماتية ولا يمكن الإجابة عليها في الفلسفات السابقة والعلوم السابقة. (المصدر نفسه: ٥٣)

الخصائص العامة للبراغماتية

١. التركيز على العالم الحقيقي (الواقعية): ليس على ما يجب القيام به في عالم مثالي.
٢. التركيز على الخبرة: بناءً على نظريات عملانية عن الحقيقة، فإن الحقائق هي

- المعتقدات التي تتشكل من خلال التجربة. (Audi, 1995: p 638)
٣. النسبية: يتحدث ديوى عن البحث بدلاً من الحقيقة، والغاية من ذلك استيعاب مقتضى الحال ومراعاته لاتخاذ الإجراءات المناسبة. (سكوفلر، ١٣٦٦ش: ١٩)
٤. التوجه نحو الكفاءة وأهميتها، بالنظر إلى النتائج العملية للأفكار. (Putnam, 2001: p1361)
٥. الذرائعية (النظرية النفعية)؛ يقول جيمس: الحقيقة هي النفع الذي تحققه من خلال التجربة العملية. (جيمس، ١٣٧٠ش: ١٠)
٦. الوسيلة: أى أن الأفكار والعقائد ما هى إلى وسيلة لتحقيق الأهداف. (Tiles, 2000: p705)

رواد النظرية البراغماتية

يقول تشارلز ساندرز بيرس^١، أستاذ الرياضيات وعلم الفلك فى جامعة هارفارد وعالم الرياضيات الأمريكى البارز، إنه وصل إلى الفلسفة من خلال كانت، بينما يعتبر نوع تفكيره إنجليزياً. إن مبدأ بيرس العملى يرتكز على العلاقة بين الخيال والعمل. اعتقد بيرس أن مجرد عنصر عشوائى سيخلق انحرافات مبعثرة عن القانون. وفقاً لبيرس، لا يمكن أن تكون طريقة الإدراك الحسى للطبيعة مبدأ موثقاً للبحث. وقد هاجم بيرس أيضاً الجبرية، أى أنه ينتهك الاعتقاد السائد بأن كل حقيقة واحدة تتمتع بشرعية وقانونية.

بقى المبدأ الذى طرحه بيرس بعيداً عن الأنظار لمدة عشرين عاماً حتى أعاد ويليام جيمس ذلك المبدأ. لم تشتهر البراغماتية على يد بيرس بل بلغت الشهرة على يد ويليام جيمس، وليس فى عام ١٨٧٨م ولكن فى عام ١٨٩٨م. «صاغ جيمس مصطلح البراغماتية لشرح نظرية الحقيقة. وفى نظرية الحقيقة، يضع جيمس الحقيقة النسبية مقابل الحقيقة المطلقة فى الفلسفة العقلانية». (شيفلر، ١٣٨١ش: ١٠) وقال جيمس «الحقيقة هى شىءٌ مرن والاعتقاد به أمرٌ صحيح. وبما أن تحقيق ذلك يعدّ من الشروط

1. Charles Sanders Peirce .

الأساسية، فإن ما يتم تحقيقه أو ما أنجز هو أمر صحيح يمكن تصديقه. كما يعتقد أن الحقيقة هي أفضل حالة يمكن تصورهما للبشرية وأفضل أمر يمتلكه وأنه يختلف عن المبادئ التي طرحها العقلانيون والمثاليون سابقاً حول الحقيقة. «(جيمس، ١٣٨٦ش: ٤٨) يتمتع برتراند راسل^١ أيضاً بأصل فلسفي مماثل لويليام جيمس، لكنه لا يقبل تجاوزاته في البراغماتية.

حتى قبل ظهور البراغماتية، كانت الحقيقة تعتبر منفصلة ومستقلة عن الوجود الإنساني، ولكن مع ظهور البراغماتية ساد الاعتقاد بأن الحقيقة ليست منفصلة عن الإنسان. (سهاكيان، ١٣٨٠ش: ١٨٢) والسبب الوحيد لصحة الفرضية، هو فعاليتها وفائدتها في الممارسة العملية. في النهاية، الحقيقة في عبارة ويل دورانت «حدث يحدث للأفكار والمعتقدات. الحقيقة هي التحقيق العملي.» (ديورانت، ١٣٧٠ش: ٤٤٦) «وفقاً لذلك، لا مكان للمثالية والنموذجية في شيء، كما يمكن اعتبار البراغماتية ردّ فعل مقابل المثالية.» (سيزيان موسى آبادي، ١٣٨٩ش: ١٠٩)

ريتشارد رورتي^٢ هو أحد أكثر الفلاسفة المعاصرين الأكثر جدلاً والأشد صخباً واضطراباً والذي كان دائماً موضع انتقادات شديدة وحادة. إنه فيلسوف تحدّث صراحة عن نهاية الفلسفة. من وجهة نظره، وطأ الغرب في ما وراء الفلسفة من المرجح أن تتجاهل الفلاسفة بالمعنى التقليدي للفيلسوف ويعامل الفلاسفة على أنهم علماء ميثافيزيقيون. «سر أفكار رورتي تنحصر في كلمة واحدة هي؛ أنه يجب أن يؤدي كل بحث إلى هدف يتجاوز المصالح الشخصية والاجتماعية، ويسعى فقط وراء تحسين تضامن المجتمع. تأثر رورتي بوجهات نظر نيتشه وهايدجر، وخاصةً وينجنشتاين، بالإضافة إلى فلاسفة مدرسة أصالة العمل الأمريكيين؛ جيمس وخاصة ديوي^٣.» (دريدا، ١٣٨٥ش: ٢٠) لقد نشأ منذ الطفولة على الجناح اليساري، وكان يكنّ احتراماً للمفكر المارسي تروتسكي^٤ وللأديب ت.س إليوت، وهو يعدّ أول فيلسوف براغماتي قام بربط الأفكار

1. Bertrand Arthur William Russell .

2. Richard Rorty .

3. John Dewey .

4. Leon Trotsky .

البراغماتية بالقضايا الاجتماعية وبعيد تعريف المفاهيم الإنسانية. توسعت أفكار رورتى البراغماتية إلى قضايا اجتماعية، وبالتالي تأخذ البراغماتية مجدية المطالب المشروعة للجوانب الإنسانية الأخرى مثل الأخلاق والفعاليات الاجتماعية والفن والشعر والتاريخ والدين. وهكذا تم تعميم الواقعية البراغماتية إلى المجال الاجتماعي، بعد أن سعت في البداية لاكتشاف الحقيقة والمعنى، وقدمت المواضيع السامية كالأخلاق والعدالة والتسامح والنفعية.

قضية النفعية

البراغماتية هي نهج في الفلسفة تقبل بعض القضايا التي تتعلق بالممارسة العملية في حياة الإنسان. يطلق مؤيدو هذا النهج على أنفسهم العمليين المتسامحين، ويصفون المجموعة بأنها معتدلة (أو محافظة). ومن وجهة نظر البراغمات فإن الحقيقة وأفكارنا ومفاهيمنا وأحكامنا وآرائنا هي في المنفعة العملية لحياتنا. «وفقاً للنظرية، فإن معيار الحقيقة، هو النفع والفائدة والنتيجة، وتثبت حقيقة كل شيء في النتيجة النهائية.» (دريدا، ١٣٨٥ش: ٣٠)

يطلق على من يعطون الأولوية للممارسات العملية والمصالح اليومية على معتقداتهم، رجال الدولة والسياسيين البراغماتيين بمعنى آخر، هم من يتعاملون بالمرونة لتحقيق أهدافهم أو البقاء في السلطة. في مدرسة البراغماتية، الأفكار والمعتقدات هي أدوات لحل القضايا والمشاكل الإنسانية؛ طالما كانت لها آثار مفيدة، فهي صحيحة وحقيقية وقد تصبح خطأ في الغد. بناء على هذا، قد تكون الفكرة حيناً فعالة ومفيدة، فهي تكون حقيقية بالفعل؛ ولكنها قد لا تكون لها نتائج مرضية حيناً آخر فحينها تصبح نظرية خاطئة. «الحقيقة ليست ثابتة وقابلة للتغيير، وجميع الأمور تخضع للنتائج، فالحق أمر نسبي تابع للزمان والمكان وفترة محددة من العلم والتاريخ.» (آدورنو، ١٣٩٥ش: ٤٣) من وجهة نظر جيمس، الفكرة تحمل في طياتها الصواب والخطأ معاً. لأن فكراً واحداً وسلوكاً محمداً قد يكون مفيداً لبعض الأفراد وقد لا يكون مفيداً للآخرين. وفقاً للمبدأ العملي: «بما أن الطبيعة تستمد مصداقيتها من تصوراتنا، فالحقيقة هي مجرد

منهج للتفكير ينبغي الأخذ به، وهذا هو جوهر المبدأ البرغماتي.» (نحن نمنح الطبيعة مصداقيتها) (شيفلر، ١٣٨١ش: ١١)

قضية العدالة

يعتقد جاك دريدا أنه إذا كان هناك شيء يسمى العدالة، فلا يمكن ترسيمه أو تفكيكه خارج القانون. (Lucy, 2004 : 63) في رأى دريدا، لا يمكن أو لا ينبغي لأي نموذج سياسى أن يحاول فرض نفسه باعتباره يجسد العدالة. وأكبر خطر في السياسة هو الشمولية التي نراها بجميع أشكالها الأخيرة: الفاشية الحديثة والقومية والطائفية والثيوقراطية. «تستند الشمولية إلى افتراض السياسة والاجتماع أمراً واحداً، وترى أن شكلاً سياسياً معيناً أو دولة معينة أو مجتمعا أو مجالاً إقليمياً محددًا، يجسد العدالة.» (دريدا، ١٣٨٥ش: ١٢)

من المنظور البرغماتي، الشأن السياسي والشأن الاجتماعي متميزان. وفي الوقت نفسه، لا يمكن الحصول عليهما في آن واحد. في بعض الأحيان يتم تجاهل العديد من القضايا الاجتماعية في الشؤون الاجتماعية ولا يمكن تحسين المجتمع وإصلاحه في ظل هذه المواجهات. والسياسيون البرغماتيون هم من ينظرون إلى القانون باعتباره عنصراً قابلاً للتفكيك، وعند الضرورة يقومون بتفكيك قانون تتجسد فيه العدالة.

قضية الأخلاق

يعتقد سقراط أن العمل إذا كان مفيداً للإنسان حقاً يكون بالفعل صحيحاً وصائباً. لذلك يمكننا أن نعزو فلسفة الأخلاق المعيارية على أسس نفعية، إلى سقراط أو بمعنى آخر نستطيع أن نعتبر سقراط مؤسساً لفكرة الأخلاق وفق النتائج والآثار المترتبة عليه. (غمبرتس، ١٣٧٥ش: ٦١٢) تُنسب نظرية الاعتدال أيضاً إلى أرسطو، مما يعنى أنه يقبل النسبية في الأخلاق. «في رأيه، الشخص الحكيم هو من يهتم بما هو خير يسعى لتحقيق المصالح العملية، بدلاً من التفكير حول الفرضية.» (كابلستون، ١٣٧٠ش: ٣٤٨) مدرسة المنفعة هي نموذج تقليدى لهذه الفرضية مع الفارق في اعتقادها بأن «أفضل سلوك

أو تصرف هو السلوك الذى يحقق الزيادة القصوى فى المنفعة.» (فرانكنا، ١٣٨٣ش: ٤٨) وبالتالي يعطى الأولوية للمصلحة العامة للمجتمع ويقدمها على الإنسان كفرد منعزل. فيما يتعلق بمسألة الأخلاق، يعتقد رورتي أيضاً أن القيم الأخلاقية تتكوّن من خلال العمليات الاجتماعية والخطابية، ولا يمكن أن تكون للقيم الأخلاقية دور ثابت ومؤسس.

الأخلاقية المعيارية؛ هى فعل يتعلق بنتائجه وآثاره التى يمكن أن تكون جيدة أو سيئة، صحيحة أو خاطئة. وهناك آراء مختلفة «يعتقد البراغماتيون أن السلوك أو العمل يعدّ صحيحاً عندما يقع مفيداً لفاعله فقط. ويعتقد آخرون أن العمل يعدّ صواباً ومقبولاً عندما يكون مفيداً للآخرين بالإضافة إلى عامله. يعدّ كل من ديفيد هيوم^١ وجيرمى بنتام^٢ وستوارت ميل^٣ من مؤيدى هذه الفكرة.

الأخلاق الواجبة؛ هى ممارسة لا تستند فقط إلى النتائج، ولكن أيضاً إلى خصائص الإجراء نفسه أو الدافع وراءه الذى يحدد الخير والعمل. أيا كانت نتيجة العمل، فإنه لا يؤثر عليه سلباً أو إيجاباً. ويعدّ إيمانويل كانت من أبرز مؤيدى هذه الفكرة.» (بالمر، ١٣٨٥ش: ١١)

بطبيعة الحال، فإن نظرية كانت فى الأخلاق كانت بعيدة عن البراغماتيين وهى قريبة من المثاليين. يتبع البراغماتيون الأخلاقية المعيارية التى تدخل حيز التنفيذ وتقدم النتائج المتوقعة للمجتمع. يتصرف البراغماتى دائماً بطريقة مثمرة ومفيدة، وقد تُفقد القيم الأخلاقية فى بعض الأحيان وظيفتها.

فرضية بحث التسامح

يبدأ التسامح عندما لا يؤيد الإنسان تصرفاً وفقاً للمعايير الأخلاقية وهذا لا يمنعه بأن يقبله. الشرط الأساسى لمعالجة مشكلة التسامح هو أولاً علينا أن ندرك بأن التسامح ليس قضية أخلاقية على الإطلاق. والتسامح غير المحدود يقوض نسيج المجتمع بقدر ما

1. David Hume .

2. Jeremy Bentham .

3. John Stuart Mill .

يعيق الاندماج الأخلاقي الشمولي للمجتمع. ابتكر رورتي مصطلح الليبرالية النخبوية. « يعتقد رورتي أن المجتمع الليبرالي ينبغي أن يستخدم التسامح كوسيلة لتقليل المعاناة والتمييز بين القضايا العامة والخاصة والتفريق بين القطاعين العام والخاص بشكل ملائم. من خلال هذا التفسير، يعتقد رورتي على الرغم من أن اللامبالاة والتسامح غير مسموح به لمن هو معرض لأوشفيتز (معسكر الموت) ولكنه له ما يبرره في ضوء تحسين المجتمع والمنفعة الاجتماعية.» (ديريدا، ١٣٨٥م: ٦٨)

البراغماتية في الشاهنامه

بعد شرح وجيز للبراغماتية، سيقوم هذا البحث بتحليل وتجسيد هذه الفكرة في الشاهنامه للشاعر فردوسي من أجل تقديم براغماتية موضوعية، وتحديد مدى تطابقها على أفكار فردوسي، والإجابة على الأسئلة المثارة. ومن هنا تتم دراسة الشواهد والأمثلة الموجودة في الشاهنامه من منظور أربع سمات مهمة من الواقعية: ١ - النفعية ٢ - العدالة ٣ - الأخلاق ٤ - التسامح وأخيراً (البراغماتية التناجزية) في ظل هذه المؤشرات الأربعة.

ملاح النفعية في الشاهنامه

كما أشرنا آنفاً، فإن البراغماتية تبرر بعض السلوكيات والقضايا نظراً لتطبيقها وفعاليتها في حياة الإنسان. إنه يوفر بالتالي تعريفاً مختلفاً للأخلاق، وتأتي بعض المفاهيم كالتواري (التخفي)، والاحتيايل والتمويه، أو العقلانية البراغماتية لتحقيق تطلعات المجتمع في ضوء النفعية. فيما يلي بعض الشواهد تتخذ فيها الشخصيات مثل هذه التصرفات والسلوكيات لتعزيز أهدافها.

• العقلانية البراغماتية (النفعية)

يرى فردوسي أن الشخص الحكيم مقياسه في العمل الذي ينجزه ولا يفعل شيئاً دون حساب وفكر. تدور الأفكار في الشاهنامه حول تحقيق المصالح السياسية والاجتماعية، والعمل العقلاني للشخصيات يكون ناجحاً عندما يكون الهدف المنشود هو حماية إيران

وتعزيز دين الزردشت. «فهذه العقلانية محدودة ونسبية وهي غير متناسقة مع عقلانية المثاليين المطلقة. من خلال هذا التفسير، فإن الرجال العقلانيين في الشاهنامه يتقيدون بالأخلاق (المركزة على النتائج) ويخرجون عادة بنتائج مرضية منتصرين.» (محمودزاده، ١٣٨٣ش: ١٠٧)

رستم ينتصر في الشاهنامه بأسرها، ليس بشجاعته وإنما بقوة الفكر والحكمة. ليس للحكمة في الشاهنامه أى محتوى فكرى يمكن البحث عنه عند العلماء فقط. يرى فردوسى أن الحكمة هى أداة واسعة يمكن من خلالها تشجيع جميع السلوكيات الاجتماعية من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً لصالح الترقية والتقدم. بناء على هذا يعتبر رستم شخصاً حكيماً وشعبياً يستخدم الحكمة للوصول إلى مصالحه ومصحة الإيرانيين عامة.

• التخفى والاحتيال

على الرغم من أن الأبطال الإيرانيين صادقون في الغالب، ولكنهم يلجأون أحياناً إلى شكل من أشكال التوارى والاحتيال. جسّد فردوسى نموذجاً من هذا الاحتيال فى قصة جردآفريد وسهراب. إن جردآفريد على عكس تهميتينة وروداية وسودابة، لا تعيش خلف الكواليس. بعد إخفاقها فى هزيمة سهراب فى المعركة، تلجأ إلى الحيلة وتطلب من سهراب أن يرافقها إلى القلعة والاستيلاء عليها حيث تقول: من غير المستحسن أن يرى العسكر ما يجرى بيننا من المبارزة والقتال وسيعيبون عليك كونك تفرغ وسعك وتبذل جهدك فى مقاتلة امرأة. وسهراب الذى أصابه الدهول بعد أن رأى حسننها وجمالها شغف بها واغترّ بكلامها، فقد إحساسه بالمنطق للحظة وسقط فى فخ جردآفريد. فعطفت عنانها وسهراب معها، فلما حصلت وراء الباب أغلقوه فى وجه سهراب ... و جردآفريد مقاتلة رشيقة وذكية فهى لا تقا تل سهراب فحسب وإنما تحتال عليه أيضاً.

«التفت جردآفريد إلى سهراب قائلة: أين آساد الرجال وأبناء القتال،

سألنى البيضة عن رأسى ووجهى والعسكر يعيبون عليك فعلك

قاتل سهراب فتاة فى ساحة المعركة وقا تل معه بشدة وقسوة

الأولى بنا إخفاء الأمر فالحكمة خير سلوك منا
فكشفت عن وجهها لسهراب بادرت بالحديث ظهرت أسنانها كالعنان»
من حزن جرد أفريد وهجير تألم الصغير والكبير
قالوا أيها المرأة الشجاعة قلب المجتمع حزين من أجلك
فإنك قاتلت وفتنت وتلونت وعملك ليس بوصمة عار

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٢: ١٨٧)

في قصة رستم وسهراب، تقوم تهمينة بإخفاء الحقيقة عن رستم خوفاً من أن يطلب الأخير ابنه عنده، فقد أخفت تهمينة أن سهراب قد بلغ رشده في السن الثانية عشرة، لهذا عندما قدم سهراب إلى إيران بحثاً عن والده، فكان متيفناً أن ابنه من تهمينة مازال طفلاً فسعى في إفشال محاولات سهراب في البحث عن والده وكشف هويته، معتبراً تلك التساؤلات والتحقيقات ما هي إلا محاولات مخادعة لانهزامه في المعركة.

حين سمع تهمتن بالكلام وقرأ الرسالة، ضحك مذهولاً من ذلك الفعل

لدى من ابنة ملك سمنجان، طفل ذكر وهو مازال صيباً

أرسلت له الكثير من المجوهرات، سلّمها أحد لوالدته

جاء كردّ أن ذلك المبعجل، سيصبح كبيراً عن قريب

نشأ على المروءة وهو صغير، فلا بد أن يصبح شرساً مبكراً

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٢: ١٩٦)

يقوم رستم أحياناً بالغش والكشف عن الحقائق بطريقة مختلفة، وينهى اللحظات المصيرية للقصة لصالحه. يتخذ هذا السلوك مرة مع سهراب ومرة أخرى مع اسفنديار. نعلم أن سهراب هزم رستم في المعركة الثانية. ويجلس للدعاء منهكاً. يبحث عن النجاة والخلاص خارج ساحة المعركة وقوته البطولية. لأنه يؤمن بأنه لا يستطيع أن يصمد أمام سهراب الشاب. يطلب من الربّ استعادة قوته المفقودة التي خسرّها منذ سنوات بناء على طلبه، في مثل هذه المواجهة المصيرية، تتحقق بالفعل رغبته. إن رغبته المتمثلة في النصر وهدفه الوطني الكبير، تتسبب في نصب فخ كبير له يغيّره إلى لعبة التخفي والاحتيال. عندما أمسك سهراب بحزام رستم وبطحه وجلس على صدره واستلّ

خنجرأ أراد أن يحتز رأسه، احتال عليه رستم وقال: ليس هذا من شأن المصارعة عندنا، بل كان من ساجل شجاعاً بالمصارعة فليس يبسط يده إلى قتله في الصرعة الأولى بل حتى يصصره ثانياً فحينئذ له ذلك. فاغترَّ سهراب بكلامه وقام عنه وخلقى سبيله... ولما تخلَّص رستم من يده قصد ماء جارياً هناك فشرّب منه واغتسل وسجد يسأل الله تعالى أن ينصره على عدوّه .. ثم تشمّراً ثانياً للمصارعة لكن هذه المرة ألقى رستم بسهراب على الأرض وجلس عليه وسلّ خنجره مسرعاً وشقّ به حنجره.. ورستم أظلم نهاره.

قال رستم لسهراب أيها الشجاع، الفارس المقدام بالضراب والطعان قواعد الحرب لدينا شيء آخر، وليس هذا من شأن المصارعة إذا قام مصارع شاب، بضرب مصارع قديم،

فليس يبسط يده إلى قتله، حتى لو كان ذلك في ساحة القتال.

بالاحتيال أراد رستم أن يتخلص، من قبضته سهراب ولا يصرع عندما تخلص وأطلق سراحه، استعداد قوته كما لو كان سلاحاً فتاكاً فقصد ماء جارياً يشرب منه، فبدأ يتعافى بشربه الماء

شرب الماء أولاً واغتسل به، فأصبح المنتصر بإذن الخالق المنان

طلب من الله أن يفوز في معركة أخرى ضد سهراب، لكنه لم يكن مطلعاً من صروف الدهر. (فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٢ : ٢٣٥)

أو في قصة رستم اسفنديار، أخبر رستم اسفنديار كذباً في نهاية معركة اليوم الأول فكرة الهروب. استغلَّ رستم الفرصة للتحدث مع اسفنديار بمرونة ولطافة ويضع كبرياءه جانباً لما اقتضته المصلحة. ومنذ لقائه الأول مع اسفنديار، يحاول مراراً فتح حوار ومصادقة ويتحدّث إليه بكل مرونة وهداوة إلا أن اسفنديار يرفض.

قال له رستم: أيها الأمير النبيل، لقد سألت الله أن يجعل قلبك سعيداً، والآن أرى منك الأذى فأخشى أن يحدث مكروه وتُسلب الراحة مني وهذا الطلب يمثل وصمة عار لي، ولا يحى هذا الخزي عنى إلى الأبد

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٦ : ٢٤٨)

وهكذا تبدأ المعركة. ويعود رستم مهزوماً مجروحاً مغلوباً على أمره بعد المعركة

الأولى، وعندما شاور أقرباءه في الأمر رأى أن الطريقة الوحيدة في الخلاص هو الهروب، ولكن "زال" يعارض ويطلب حلاً من العنقاء. رستم يقضى على اسفنديار بعد معرفته بسرّ موته الذي تعلّمه من العنقاء وذلك من خلال استهداف عضو في جسمه القوى المنيع. البطل الذي رسمه فردوسي في الشاهنامه وهو رستم تلتطخ يده بدم اسفنديار دون خوف من عين لم تتم. رستم في كلتا المعركتين، قبل الخوض بحرب عرف أنه سيهزم فيها رغم رغبته الشخصية، خاصة في المعركة ضد اسفنديار. لكن مهمته تغلبت على رغبته.

ذكرت العنقاء حلاً لاسفنديار وقالت لرستم:

الحل في القوس وخشب الأثل يوضع في ماء العنب،

ثم يصب على عين اسفنديار اليمنى، عندما يكون الناس على استعداد لذلك،

ولكن اعلم أن من يسفك دم اسفنديار فلا مكسب له وسيعاقبه الدهر.

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٦ : ٢٩٩)

• التمويه^١

التمويه أو المخادعة والمراوغة والاستحالة؛ هي أفعال براغماتية تظهر في بعض شخصيات الشاهنامه. فتلك الشخصيات تسعى من خلال تغيير مظهرها أو سلوكها لإخفاء هويتها الحقيقية، بغية الوصول إلى أهدافها. في قصة بيژن ومنيزه، عندما يحاول رستم إنقاذ بيژن، يجد أن حشد العسكر والمعركة لا يفى بالغرض، لذلك يرى الحل في أن يذهب شخصه مع مجموعة من الأبطال في زى التجار إلى توران لإنقاذ بيژن. عند وصوله إلى توران، كان يرتدى رداءً صوفياً، وأنشأ مع رفاقه سوقاً خارج الحى يعرضون فيها البضائع والقماش. مثال آخر على ذلك نجده في قصة سهراب وجرادآفريد، حيث نرى الأخيرة تحتبى وراء بيضة في محاولة تمويه منها تتنكر من خلالها لسهراب حتى تظهر كرجل محارب تهاجم سهراب في المبارزة والقتال. لبست المرأة السلاح، ولم يكن في ذلك الأمر تأجيل،

ووارت قرونها تحت الزرد ولبست درع الرجال الأبطال.

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٢: ١٨٤)

ملامح الإطار الأخلاقي في الشاهنامه

يعرف عن أبطال الشاهنامه أنهم متكلمون بارعون إلى جانب السمات البارزة كالوطنية والحمية والشجاعة والتسامي الروحي والفكري وكونهم أهل مرح وكبرياء وبراءة وتبجح. «يعتقدون أنه لا قيمة للنفس والمال والبنين والزوجات في سبيل حماية العرش.» (صفا، ١٣٩٠ش: ٢٤٢) تبدو ملامح هذه الشخصيات في الوهلة الأولى غامضة مغبرة بغيار اللامبالاة والأنانية وحبّ الذات بعض الشيء. إنهم يتخلّون عن زوجاتهم وأولادهم، ويلجأون إلى الخدعة والمكيدة ويكتمون الحقيقة، وأيديهم ملطّخة بدماء أبنائهم وإخوانهم والنبلاء من الرجال تحقيقاً لأهدافهم السامية وما هي شخصية وفردية أبداً. فالجدل بين المصلحة الشخصية والمصلحة الوطنية - العامة، هو الصراع الأمثل يتخذه الأبطال في تقرير المصير واتخاذ القرار، حيث إن الحبّ أيضاً لا يبعدهم عن مهامهم في صرف النظر عن رغباتهم وطموحاتهم تجاه المجتمع.

يتجنّب الأبطال الإيرانيون السحر والأكاذيب وهم معادون للسحرة المشعوذين كعدائهم لخصومهم وهم يلتزمون دائماً بمبادئ البطولة والشجاعة في ساحة المعركة. لكن التورانيين طالما يلجأون إلى السحر والشعوذة لاحتماء أنفسهم، ويجدون في الدنائة والهروب خلاصاً. والهروب من ساحة الحرب يساوي الموت لدة الإيرانيين على عكس التورانيين، فإنهم يعتبرون الغارة والاقترحام وأمثال هذه الأفعال خزيّاً وازدراء. لكن في بعض الأحيان نرى الأبطال الإيرانيين يكسرون قواعد القتال لإنقاذ إيران والشاه وحفاظاً على السمعة، ويلجأون إلى الكذب والاحتيال والمكر والخدعة والتراجع. وذهذا ما نراه في معركة پيران و گيو غيو حيث يلجأ الإيرانيون إلى هذه الأفعال والتصرفات. ونجد في الشاهنامه أن الإيرانيين الذين لم يلجأوا أبداً إلى المكيدة والاحتيال في ساحات الحرب، يتوسلون الآن بالحيلة لفتح القلاع الكبار كما توسّل "قارن" بالحيلة في فتح قلعة دژالان:

سلم العسكر لشيروى وقال: أريد الآن الاختباء،
أسير إلى حاكم القلعة رسولاً، أريه بصمة الخاتم،
إذا دخلت القلعة لأرفعن الراية، والسلاح الرمادى،
أقبلوا على الحصن مباشرة، وإذا دخلتم الحصن أضربوا واقتلوا دون هوادة.

(فردوسى، ش ١٣٨٧، ج ١ : ١٢٧)

كذلك لفتح قلعة جبل "سپند"، انضم رستم إلى سلك تجار الملح تنكراً:

استمع رستم لأبيه وعدّ العدة لما كانت تستحق المعركة.

وفى حمولة الملح أخفى العصا والصولجان، تحملها الأعناق والأعضاء.

أخذ معه بعض الأقارب الأبطال الذين كانوا فى حالة تأهب واستعداد.

وأخفى ذلك الفارس البارز سلاح البطل بين حمولة الإبل.

واسفنديار الذى يعدّ أيضاً رمزاً للصدق والاستقامة، عندما يجد نفسه غير قادر على

دخول قلعة الملك أرجاسب المنيعه، يتنكر بزى التجار ليتمكن من الدخول فى القعة

واجتياحها وتدميرها:

فى مكان مخادعة وفى مكان آخر خوف ورهبة، وتكون أحياناً مهرباً جميلاً وأحياناً

لا تكون فى مكانها.

إذا دخلت القلعة تاجراً، أنتخفى ولا أقول بأنى أنا بطل العالم المقدم.

سأجد طرق الخلاص من كل باب، و أقرأ كتاباً من العلم أكسبه من كل تجربة وامتحان.

(فردوسى، ش ١٣٨٧، ج ٦ : ١٩٢)

واسفنديار شأنه شأن رستم يلجأ إلى الكذب والاحتتيال فى الأراجيز. يمتدح والده

لشجاعته وكونه ملكاً عادلاً، فى حين أنه لم يعتبر أباه شجاعاً وعادلاً من قبل. كما ينصح

رستم بعدم الإحساس بالذل والعار عند الوقوع فى سلاسل وأغلال الملك، على الرغم

من أنه هو نفسه كان يشكو بمرارة تحمل مثل هذا العار من قبل، وعندما ألقى رستم عليه

اللوم لعدم دعوته للعشاء، قال اسفنديار الذى أخبر أخاه سابقاً أنه يريد إذلال رستم،

قال بنبرة هادئة، أنا لم أشأ إزعاجك.

يعدّ الثأر والحقم الدافع الرئيس لجميع المعارك وأعمال العنف فى الشاهنامه،

وتشكل غالباً العوامل الداعية للحرب لدى أبطال الشاهنامه أيضاً. على الرغم من أن الثأر سمة مذؤومة، إلا أنه يعتبر أمراً بطولياً في الشاهنامه، وكان الحقد طريقاً يسلكه الأبطال. وفي جميع أنحاء الشاهنامه، يمثّل الحقد عاملاً رئيساً لأغلب المارك على حدّ تعبير فردوسي. وتصل حالة الثأر والانتقام أحياناً إلى أقصى حدّها، فمثلاً عندما قتل جودرز بيران غرف غرفة من دمه وتشرّبها تشفياً لسياوخش وأولاده السبعين. وثأر رستم لنفسه عندما وقع في حفيرة فتمزّق بطنه وخاصرته وكان ذلك من فعل أخيه شغاذ، فتناول رستم قوسه ووترها ففزع منه شغاذ فتترّس بشجرة فرمى رستم الشجرة بإحدى نشابتين فنغذت فيها وخلصت إلى شغاذ وخاطته مع الشجرة فتأوّه آهة خرجت معها روحه. ففرح رستم وحمد الله على ما يسّر له من إدراك ثأره بيده وقبل موته.

خاط رستم أخاه بالشجرة، وعندما خرجت روحه هدأت روعته

شكر رستم ربّه على ذلك وهو دائماً يشكر الربّ بعد كل فوز ونصر.

عندما قصدتني بالقتل ورأيت الموت بأُم عيني، لم يهدأ لى بال حتى أتشفى بقتلك.

دفعتنى إلى الموت بقوة وإكراه من قبل، ولهذا الجفاء أردت أتشفى لنفسى ثأراً وانتقاماً.

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج٦: ٣٣٣)

كما طلب رستم أيضاً ثأر سياوخش بعد مقتله. وفقصد بلاد توران، وسار إلى حضرة كيكاووس وقال له: «أيها الملك! قد حصدت ما زرعه سوء تدبيرك واجتنتيت ما أثمرته شراسة خلقك .. فقام رستم واقترح على سودابة وألقاها من تحتها وجرّها بقرونها حتى أخرجها من خدرها فوسطها في الطريق بنصفين.» (دير ساقى، ١٣٩٢ش: ١١٣) اقترح "تهمتن" على التخت، وأقبل على سودابة لأمر،

أخرجها من خدرها وجرّها بقرونها، حتى تشحطّ التخت بدمها،

فوسطها بنصفين بخنجره، وكيكاوس لم يجر جواباً عمّا فعل.

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج٣: ١٧٢)

ملاح العدالة في الشاهنامه

تعدّ الشاهنامه مظهراً لثقافة وتاريخ إيران القديم وأسلوب إدارة البلاد وفن السياسة

في إيران، وطالما حاول فردوسي تصوير حكومة عادلة يجسدها في كتابه الشاهنامه من خلال القصص وحكايات الملوك. وجاء في الشاهنامه، أنه يجب على الإنسان أولاً أن يكون عادلاً في ذاته وكيانه. كما نرى في الوجود الإنساني، جدلاً وصراعاً قوياً يجري دائماً بين قوى الخير والشر. يرى فردوسي «أن الاعتقاد بالعدالة والالتزام ببسط العدل أمر لا بد منه وهو أساس لفكرة صفوة الملوك في إدارة البلاد.» (محمود زاده، ١٣٨٣ش: ٦٦). ولكن الموضوع الهام، هو أن فردوسي والشاهنامه لم ينجحا بالكامل في إقامة العدل. على الرغم من أن أساس عمل فردوسي يتمحور حول العدل، إلا أن هذه العدالة هي في بعض الأحيان سلاح ذو حدين يمكن أن ينتهك العدالة بنفسه ويخرج عنها بقدر ما يدعو إليها.

كما ذكرنا آنفاً، عندما ينتهي خبر مقتل سیاوخش إلى رستم، يسير رستم إلى توران طالباً بثأر سیاوخش ثم يوسط سوزابة بنصفين دون ترديد ولا محاكمة. وعمل رستم هذا لا يعدّ مذوّماً في رأى فردوسي ولا حتى يعاقب عليها. ونرى في مكان آخر، أن سهراب يطلب من هجير الذي وقع في أسره أن يرشده إلى مخيم رستم، ولكن هجير تفوّه بالكذب خوفاً من يصيب هذا البطل الشاب رستم بسوء، فغضب سهراب من فعلته وهدهده وعاقبه بشدة.

اختطفه بسرعة بالغة من سرجه وأوثقه في أسره هجير لم يعمل شيئاً
ترجل عليه سهراب من الفرس ليحتز رأسه.

فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٢: ١٨٤)

فقطعنه برمح من الخلف وألقاه من ظهر الفرس ثم أمكث مكانه.

(المصدر نفسه: ٢١٩)

ملامح التسامح في الشاهنامه

يعنى التسامح في الثقافة الإيرانية الإسلامية، أن المرء يعامل الآخرين بالتساهل والملاطفة ويتجنّب القسوة والفظاظة، لأن المرء إذا كان يحمل صفات سيئة مثل عدم التسامح والعنف والقسوة فهو لا يتمتع بمكانة اجتماعية مطلوبة. على الملك أن يعامل

رعاياه بلطف، ولا يعامل الخاطئ والمذنب بعنف، وأن يرفع من شأن الناس حفاظاً على كرامتهم الإنسانية. ولكن كما لاحظنا، فإن البراغماتيين يقدمون الأخلاق العملائية ذا النتائج المثمرة والنافعة على الأخلاق الواجبة.

تتسم شخصية رستم في الشاهنامه بأنها مزدوجة، تكون شخصية مثالية حيناً، وتظهر عملائية ذا نتائج مثمرة وما يعرف بالبراغماتية حيناً آخر. وهذا لا يحدث عادة مع شخصيات مثل زال وسام، لأنهما متحفظان متمسكان بالتقاليد، في حين أن اتجاه رستم في الساحة السياسية في عصره يفتقر إلى روح المحافظة والتسامح.

عندما مات منوچهر ذلك الملك الصالح، تربع ابنه نوذر على العرش. فتوجه سام نحو دار الملك، تلقاه الأمراء والأكابر مبادرين ومشايعين، شكوا إليه سيرة الملك وسوء صنيعه بالرعية، وقال سام هذا لا يستحسن الربّ سوف أردّه إلى الطريقة المرضية والسيرة الحميدة، موجّهاً نصحه إلى نوذر. «يظهر موقف زال تجاه كيكائوس عند مهاجمة مازندران إلى مستوى من التحفظ، ما يشوّه سمعته من حيث الإنسانية.» (كرجيان، ١٣٨٣ش: ٢٢). فيعتبر زال مهاجمة مازندران أمراً لا جدوى له، ومهاجمة مازندران يؤدي إلى استئصال العسكر وإهدار الثروة المادية الإيرانية. ولكن إجابة كيكائوس تتعارض تماماً مع تحليل زال. والردّ النهائي لزال يذهل المرء حقاً:

قلت له أنت الملك ونحن الرعية، نتحدّث إليك بشفقة وحنان
فإن سلكت العدل أو أطلت يد الظلم، فأريك هو أمر مطاع
إن لم تندم على فعلك، فاعلم أنك من يهدى الفكر وينير الدين.

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٢: ٨٣)

ولكن في المقابل، نرى رستم يأتي برفقة جيو إلى حضرة كيكائوس. بغضب كيكائوس لتأخر رستم لدرجة أنه يأمر بقتل كليهما. يأتي ردّ رستم على خلاف التقاليد السياسية التي دفع زال إلى التحفظ بها، فردّه كان كسراً للتقاليد بامتياز.

فكل واحد من أمورك أنحس من الآخر، ولا تليق بك الشهر يارية والملك،

لماذا مجرد علي كيكائوس؟ ومن كيكائوس؟ ومن طوس حتى يمدّ يده إلى،

إني طليق حرّ ولست عبداً لأحد، إني عبد للإله فقط،

دعاني فرسان العسكر للملك، فزينوا لي التاج..

ولكني لم ألتفت للملك حتى، فاحتفظت بالعادات والعرف
فلو قبلتُ بالتاج والتخت ملكاً، لم تكن تنعم أنت بالكرامة قطّ.

(المصدر نفسه: ٢٠١)

وفي ردّه على جودرز عندما توسّط بينهما قال رستم:

وما فزعي من كيكائوس؟ لست أفرع منه أبداً سواءً عندي كيكائوس والتراب.

(المصدر نفسه: ٢٠٤)

نرى سلوكاً مشابهاً لهذا في قصة برزو. عندما يرى أفراسياب برزو في شنجان
ويجده شاباً مقتدرًا، يطلب من أحد قاداته رويين اصطحابه. يمتنع برزو طلب رويين.
وعندما يسمع برزو باسم أفراسياب، يردّ برزو: إذا كان يطلبني لأمر فاليأتى بنفسه.
فيحدث صراع بينهما. عندما يشهد أفراسياب العراك من بعيد ينهض غضباً، إلا أن
بيران ينصحه في المصالحة مع هذا الشاب، لأنه الحصول على مثل هذا الشاب في
عسكرنا سيكون بصالحنا ويوافقه أفراسياب الرأي.

وهناك مثال آخر على السلوك المتناقض لرستم في قصة رستم وسهراب. فعادة
كلما كان يحدث مكروه لإيران وملكه، ينهض رستم على الفور إلى ساحة المعركة لإنقاذ
الإيرانيين. فتوجهه نحو مازندران مسرعاً، وتنظيم معركة لإنقاذ الإيرانيين من الملك
هاماوران، وأخيراً حضوره التاريخي في معركته ضد أفراسياب، جميعها تدلّ على مثل
هذا السلوك. «ولكن في قصة رستم وسهراب، فإن ترديد رستم في ذهابه إلى كيكائوس
يدعو إلى التأمل نوعاً ما. فلم يطلب كيكائوس مساعدة من رستم أبداً حتى في أصعب
الظروف التي مرّ بها، حتى أثناء أسره في مازندران. يرسل جيو لاستدعاء رستم.
ورستم يتأخر خلافاً لما كان يصدر منه في السابق من الاستعجال والمبادرة، فهو يدعو
جيو إلى الشرب ويتوانى في النهوض إلى حضرة الملك. في النهاية يحذر جيو رستم
أن الملك سيغضب من هذا التأخير.» (محمود زاده، ١٣٨٣ش: ١١٠)

عندما سمع رستم ضحك وقال إن النصر لنا.

أنت يا شارب الخمر، إشراب الشراب البابلي ولا يهمنك الأمر.

جاء الساقى وقدّم الشراب بسرعة، وابتهج رستم سروراً لهذا العمل.
قال جيو لرستم الفارس: يا من يلاطفه الملك والأبطال،
سأسير إلى أفراسياب، ولا أبقى حتى أستعيد كرامتى.

(فردوسى، ١٣٨٧ش، ج ٢: ١٦٢)

نحن نعلم أن رستم ليس من أهل الطرب ولا هو شخص غير مسؤول يفكر فى
مصلحته الشخصية فى أزمة اجتماعية سياسية، واتجاهه نحو الشراب ومكوته أياماً فى
الطريق الذى يظهر بأنه شخصية تتسم بعدم المسؤولية وعدم امتثاله لأوامر الملك، ما
هو إلا قوة فى داخله تمنعه من حدوث كارثة. وهو من جهة أخرى لا يريد معارضة
كيكاوس يبحث عن طريقة متساهلة تتمثل فى تأخير الامتثال لأوامر الملك.

رستم بين بطل مثالى أو براغماتى؟

تتجسد مشاعر فردوسى فى الأبطال بصورة عامة وفى شخص رستم على وجه
الخصوص. تتشابه حياة رستم مع الحياة الاجتماعية لبلاده لدرجة أن أغلب إنجازاته
تتعلق بتقلبات تاريخ مجتمعه وبلاده. فقد كان لرستم دوراً بارزاً فى النيل من الجنى
الأبيض (سپید دیو)، وفى هزيمة الإيرانيين فى مازندران وفكّهم من الأسر. كما
لأفراسياب دوراً بارزاً أيضاً فى معارك جرت بين إيران وحبشة ومصر وهاماوران
وسائر المعارك، ولكن رستم ارتكب أخطاءً وزلات فادحة وجسيمة، حيث تلوّث يده
بدم ابنه. يقتل سودابة دون محاكمة تشفياً منه وانتقاماً. ويقضى على اسفنديار النبيل.
ويلجأ أحياناً إلى الحيلة والسياسة والتدبير فى القضاء على الأعداء وليس ببأسه
وصلابة جسمه يحاربهم. إن سلوك رستم المتناقض فى الشاهنامه يجعل أصابع الاتهام
موجهة نحوه. ولكن السؤال هو؛ ألا يقوّض صمته تجاه مقتل سیاوخش وهزيمته فى
المعركة مع سهراب واسفنديار، مكانته البطولية ووجهة بسالته؟

من الواضح أن فردوسى كانت له نظرة شاملة وواقعية بالنسبة لشخصيات قصته
فى الشاهنامه وخاصة شخصية رستم البارزة. فقد قام فردوسى بتصوير رستم كإنسان
بكل خصائصه الإنسانية قبل أن يجسده بطلاً فى قصصه. فرستم بطل بأعمال رمادية.

يتصرف في بعض الأحيان كمثالي يتجاهل أى مصلحة أو منفعة حتى يبعث القلق في نفس القارئ إزاء الاحداث. وفي بعض الأحيان يدوس على كرامته لتحقيق هدف نبيل. لأنه يحمل عبئاً ثقيلاً من المسؤولية وهي انتصار إيران على غير الإيرانيين. ولا يعرف للفشل معنى. يقتل ابنه بيده حتى ينجز المهمة التي كلف بها. وفي الصراع بين الطموحات العامة وإحساسه الفردى، يقدم المثالية الوطنية ويدفه ثمن بطولاته باهظاً. يعمل رستم كمثالي عندما يتعلق الأمر بالمصلحة الذاتية، وعندما يسعى إلى تحقيق مصالح وطنية وإيديولوجية واسعة النطاق، فإنه يعمل كبرغماتي عملائي. وهذه الملامح الواضحة لشخصية رستم، على الرغم من أنها لا تجعله شخصية ثابتة نوعاً ما في الوهلة الأولى، ولكن بنظرة أكثر تمعناً نجد أنه لا يعتمد على الأعضاء القوية غير العادية فحسب ولكن أيضاً يمتاز ببراعة الأبطال البراغماتيين وتفكيرهم. وهذا ما يلزم أن يتصف به البطل المثالي.

النتيجة

صوّر فردوسى نوعاً من البوتوبيا في الشاهنامه يكون فيها الانتصار حليفاً للأبطال الإيرانيين في الغالب. لكن شخصياته البطولية تقوم أحياناً حسب الظروف بقتل أقاربهم، ونصب العداء والكراهية لهم، تغضب حيناً وتلجأ إلى الخداع والأكاذيب حيناً آخر. ويجعل سلوك الأبطال فردوسى والشاهنامه معرضاً للاتهام من قبل الأخلاقيين، ما يطرح هذا السؤال نفسه؛ هل أبطاله أبطال حقيقيون أم أنهم يمتازون بسمات تقيضة للبطولة؟ يمكن العثور على الإجابة في الفلسفة البراغماتية. هذه الفلسفة لها رؤية خاصة للسمات الأخلاقية، وبناء على هذه النظرية، فإن البطولة، عمل يتجاهل المنافع الشخصية في سبيل تحقيق المنفعة العامة. وجميع أعماله البطولية هي براغماتية تعتمد على النتائج المثمرة. من خلال هذا التعريف، فإن أبطال الشاهنامه الذين لم يهتموا إلا بانتصار إيران على الأغيار ومن وراء اتباعهم الصفات الرذيلة (في الفلسفة الإسلامية) هدف وطنى وسام، هم الأبطال الحقيقيون.

وبالتالى، يمكن أن نستنتج أن تصرفات الشخصيات البارزة في الشاهنامه وخاصة

رستم، تتسق إلى حد كبير مع أفكار البراغماتية في مجال الأخلاق الغائية والعدالة والتسامح والتعامل مع مصالح المجتمع وتجاوز المعايير الأخلاقية. والشاهنامه تتماشى مع هذا الفكر الفلسفي أكثر من أى فلسفة أخرى. لا تتناقض تصرفات رستم العملائية البراغماتية ونفعيته مع شخصيته البطولية والبطولة أبداً، مما يدل على مسؤوليته وحكمته. إن شخصيته وسلوكه الواضح كتب الانتصارات له ولمجتمعه. لطالما كان الأبطال الملحميون إما أشخاصاً مثاليين مثل أشيل، وسيغفريد، وجلجامش الذين تضرروا من ناحية أخلاقهم الوظيفي (الواجبي) أو لكونهم براغماتيين كأوديسة حيث إن انتصارهم تحقق من ناحية أفكارهم العقلانية. رستم هو الوحيد الذي يعكس المظهر الكامل لهذا التناقض في شخصية معينة تجعله إنساناً كاملاً.

بما أن النظرة التقليدية تجاه أفكار الفلاسفة النظريين لا تفتح مجالاً في العالم المعاصر، فإن أداء البراغماتية يعتبر سلوكاً مفضلاً، وقد اكتسب البشر التجربة العملية هذه في ظل التغيرات والتقلبات على مدى التاريخ، والهدف، تحسين المجتمع. والعمل، وسيلة لتحقيق الأهداف، ويمكن ترسيم جميع المعايير الأخلاقية والاجتماعية أو تفكيكها من حيث الظروف الاجتماعية والسياسية. تمتد فلسفة البراغماتية إلى فكرة مفادها أن المجتمع المثالي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الإجراءات العملية التي يقوم بها الناس وأبطالهم، ويمثل فردوسى هذه الفكرة بوضوح في الشاهنامه.

المصادر والمراجع

- آدورنو، تودور. (١٣٩٥ش). عليه ايده آليس. ترجمة مراد فرهاد پور. طهران: هرمس للنشر.
- پالمر، مايكل. (١٣٨٥ش). مسائل اخلاقي. متن آموزشى فلسفه اخلاق. ترجمة عليرضا آل بويه. طهران: پژوهشگاه علوم وفرهنگ اسلامي.
- جيمز، ويليام. (١٣٨٦ش). پراگماتيسم. ترجمة عبدالكريم رشيديان. طهران: انتشارات علمي وفرهنگي.
- حلبى، على اصغر. (١٣٩٣ش). سير فلسفه در اروپا. طهران: زوار للنشر.
- ديبرسياقى، سيد محمد. (١٣٩٢ش). برگردان روايت گونه ى شاهنامه ى فردوسى به نثر، طهران: قطره.
- دريدا، ژاك. (١٣٨٥ش). ديكانستراكشن و پراگماتيسم، ترجمة شيوا رويگريان، طهران: گام نو.

دورانت، ویل. (۱۳۴۲ش). تاریخ تمدن. ترجمه مهرداد مه‌رین. ج ۱. طهران: مؤسسه فرانکلین للنشر. ساهاکیان، ویلیام ومیبل لتوساهاکیان. (۱۳۸۰ش). افکار فلاسفه بزرگ. ترجمه گل بابا سعیدی. طهران: بحر دانش

سیزیان موسی آبادی، علیرضا وشعیب بهم‌ن. (۱۳۸۹ش). «پراگماتیسم و سیاست بررسی و نقد پراگماتیسم در قلمروسیاست و حکومت». فصلنامه تحقیقات سیاسی و بین‌المللی، ش ۵. زمستان ۱۳۸۹. صص ۱۲۳-۸۹.

شفلر، اسرائیل. (۱۳۸۱ش). چهار پراگماتیست، درآمدی انتقادی بر فلسفه ی پیرس، جیمز، مید و دیوئی، ترجمه محسن حکیمی. طهران: نشر مرکز

صفا، ذبیح‌الله. (۱۳۹۰ش). حماسه سرایی در ایران. طهران: فردوس للنشر.

طوسی، خواجه نصیرالدین. (۱۳۶۴)، اخلاق ناصری، طهران: خوارزمی.

فردوسی، ابوالقاسم. (۱۳۷۶ش). شاهنامه فردوسی، مسکو: طبعه مسکو.

فروغی، محمد علی. (۱۳۹۳ش). سیر حکمت در اروپا، طهران: زوار للنشر.

فرانکنا، ویلیام کی. (۱۳۸۳ش). فلسفه اخلاق. ترجمه هادی صادقی. ط ۲. قم: کتاب طه

کاپلستون، فردیک. (۱۳۷۰ش). تاریخ فلسفه. ترجمه بهاء‌الدین خرمشاهی. ج ۱. طهران: علمی و فرهنگی و سروش.

گرجیان، رحیمه. (۱۳۸۸ش). کلیات شاهنامه به نشر. طهران: پویان للنشر.

غمبرتس، تیودور. (۱۳۷۵ش). متفکران یونانی. ترجمه محمد حسن لطفی. ط ۱. ج ۲. طهران: خوارزمی.

محمودزاده، محمدرضا. (۱۳۸۳ش). افراسیاب در اسطوره و حماسه زخم عمیق رستم. طهران: قطره للنشر.

Audi, R. (1995.) "Pragmatism in R Audi(ed)". The Cambridge Dictionary of Philosophy

2th ed. Cambridg: Cambridge univ. Press. P. 638

Lucy, Niall. (2004). A Derrida Dictionary, Malden and Oxford: Blackwell Publishing Ltd.

Putnam, R.A. (2001.) "Pragmatism In L.C.Becker & Ch.B. Becker(eds)".

Encyclopedia of Ethics. 2 th ed. Vol.3. London and New York: Routledge. PP. 1361-64.

Tiles, J.E. (2000.) Pragmatism in Ethics In Concise Routledge Encyclopedia of Philosophy

London and New York: Routledge. P.705.